

## شخصيات الأدباء في الأدبين العربي والانجليزي للأستاذ فخري أبو السعود

يكثر التشابه بين أفراد الجنس الواحد في عالم الطبيعة في الطبقات الدنيا من الأحياء ، وكلما ارتقى الجنس في سلم الحياة ازداد الاختلاف في المظهر والصفات بين أفراد الجنس ؛ وكذلك الحال في المجتمعات البشرية : يتشابه الناس ويتقاربون في المبادئ والأغراض في عصور الانحطاط ، ويختلفون خلقاً وعبقرية في عصور النهضات ، ويتفرقون في شامب الحياة ودروب الطامح فلا يتفقون إلا في تدفق الحياة في نفوسهم وعلو همهم وولوعهم ببعيدات الأمور ، فالتشابه والاتفاق من أمارات الانحطاط .  
والاختلاف والتميز من دلائل الرقي

وذلك الشأن في آداب الأمم : فإن أظهر ميزات عصور النهضات فيها اختلاف مشارب الأدباء وتباين شخصياتهم واستقلال نظراتهم إلى الحياة ووجهاتهم في الفن ، فهم وإن اتفقوا على مبدأ أو مذهب في الأدب ، لا يتشاكلون ولا يكرر بعضهم بعضاً ولا يُفنى أحدهم عن سائرهم ، بل ينتحى كل منهم ناحية من الحياة يوكل بها ، وبرى الحياة جماء بمنظار نفسه

وقد يكون فيها اتخذته فرساً أخيراً من الخروج عن معيار الذهب وتخفيض قيمة الفرنك بالنسبة للعملة الأجنبية شيء من التخفيف على السائحين وإغراء لهم بزيارة فرنسا بعدما انصرفوا عنها في الأعوام الأخيرة ، ولكن الظاهر أن التخفيض الجديد لم يحدث أثرًا يذكر إذ صحبه ارتفاع مماثل في الأثمان ، فإذا صح ذلك ، وإذا لم توفق الحكومة الفرنسية إلى تخفيض مصار العيش وإخماد تلك النزعة الجشعة التي تبدو في كل صنوف التعامل فإن أولئك الذين زاروا فرنسا أيام ارتفاع الفرنك واكتووا بنار هذا الغلاء ، يترددون كثيراً في العودة إليها

(\*\*\* )

لا بمنظار غيره ، وينفث في أدبه خلاصة عبقرية الفردية ؛ أما في عصور إدهار الأدب فيمائل الأدباء حدوك النمل بالنمل ، ويتهافتون جميعاً على نموذج الأدب أو الأنشاء الأدبي ، لا ينفكون يقلدونه ويمارضونه وينقلون بحكاكته عن حقائق الحياة وليساب الفن ، فيخرج أدهم جميعاً صوراً مكررة من أنفسهم وأشكالاً مسموخة من ذلك النموذج المحتذى أو القالب المصوب

ويمتاز فنون الأدب الانجليزي ، ولا سيما في عصور نهضاته ببروز شخصياتهم واستقلالها واختلاف بعضها عن بعض اختلافًا تاماً ، إلا في اقتباسها جميعاً من نور الصدق ، وإصدارها جميعاً عن معدن الشعور : فالنهضة الرومانسية في مسهل القرن التاسع عشر مثلاً ، كانت ذات أغراض معينة مشتركة بين جميع أعلامها : كانت ثورة على قيود الفكر وصناعة اللفظ وتقاليد النظم وعودة إلى الطبيعة والبساطة ، وتزوعاً إلى جمال الحياة ، ومع ذلك يتباين فنون شعرائها وتبدو شخصياتهم بارزة واضحة الاختلاف في الأخلاق والمشارب والأساليب :

فوردزورث كان موكلاً بالطبيعة ومجالها وأسرارها ، مؤمناً بضرورة استخدام لغة النثر السهلة في الشعر ؛ وشلي كان معنياً بالإصلاح الاجتماعي وعدواً للدودا الملكية والكنيسة والتقاليد الحفقاء ؛ وكولردج كان هائماً في عوالم الجهول وأغوار المسامح السحيق ؛ وسكوت كان مغرمًا بالمصور الوسطى وتاريخها في بلاده اسكتلندا ، متفنياً بجدها وفروسيتها ، محبباً لأغانيها الشعبية ؛ ويرون كان بوهيمي النزعة جريء الفكرة مشغولاً بقصص الأبطال ، جزل الأسلوب رائعه دون تدييح ولا تروء ولنضرب مثلاً آخر مؤرخي الإنجليزية الثلاثة ، الذين توخوا الفن والأسلوب الأدبي في تواريتهم : جيبون وماكولي وكارليل ، فأولئك شخصيات ثلاث متميزة : فالأول رسين الأسلوب واللفظ ، محكم البنيان ميال إلى الموازنة في الماني والازدواج في التراكيب ، والثاني يراوح بين طويل الجمل وقصيرها ، مواع بتصوير المناظر التي يمر بها تصويراً يقف بك أمامها وجهاً لوجه ، كلف بتأريخ مآثر وطنه وعظائم أبنائه ومواقف فخاره ، أشد تشبهاً بالوطنية وأقل نصيباً من النظرة الانسانية الشاملة من صاحبيه ، والأخير قصير الجمل فجائي الأفكار ، معنى بمظاهر الرجال أخلاقهم وسحناتهم وآثارهم في عصورهم

وقل مثل ذلك في سائر مشهورى الأدباء الانجيز : كلهم

بل إن شخصيات بعض من تقدم ذكركم من خول المربية ، على كثرة ما وصل إلينا من كتاباتهم وأخبارهم ، مبهمة في كثير من نواحيها

ولا ريب أن لطول العهد وكر الأمن أثراً كبيراً في تبديد الآثار ، وتغيير الأفكار والشارب والأذواق ، وإحاطة شخصيات المتقدمين بنهايم من الغموض والغرابة مهما تحدث الشعراء بذكر الخلود ؛ ولكن هناك عدا هذا عوامل لا بست الأدب العربي فأدت إلى غموض كثير من شخصيات كثير من أعلامه ، وتشابهها واختلاطها ، أولها شيوع الأبية في الجاهلية وصدر الاسلام ، مما أدى إلى تبدد أخبار كثير من الشعراء وضيق أ شمارهم واختلاطها ، ودخول الزيف والنمويه عليها ، مع أن شعر ذينك المصريين كان أصدق حديثاً وأكثر إفصاحاً عن شخصيات قائله من شعر العصور التالية ، لولم تبث به يد الأمية والنسيان

ولما انتشرت الكتابة لم تكن الطريقة التي جرى عليها المؤرخون في ترجمة الأدباء هي التلي : فقد اقتصرنا على توارخ ووقائع - كوفود الأديب على ممدوح أو اتصاله بديوان أمير - لا أهمية لها في شرح نفسياتهم ، ولا غناء وراءها في توضيح شخصياتهم ، وجاء كثير من التراجم مختزلاً مجتزأ . وناقض بعض الروايات بعضاً ، وصعب تصديق بعضها ، فظلت جوانب من تلك الشخصيات مغلقة ؛ فما أقل ما يعرف عن عبد الحميد وابن المقفع والطائي والبختري وابن الرومي والمنيني ، فهم لا يكادون يظهرون في ضوء التاريخ إلا في جناح أمير أو ركاب عظيم ؛ أما نشأتهم فمهملة ، وهي التي لها أكبر الأثر في آدابهم ؛ وأما حياتهم اليومية فنغلة ، كأن ليس لها خطر ولا شأن وما قصر فيه المؤرخون لم يعوضه الأدباء أنفسهم : فكثير

منهم لم بصوروا أنفسهم في أشعارهم ورسائلهم صوراً واضحة ، ولم يودعوا خلجات أفئدتهم ونظراتهم في الحياة ، بل ما أكثر الكتاب الذين قصرنا عليهم على إنشاء رسائل الأسماء ، والشعراء الذين توفروا بأشعارهم على مدح أرباب النوال ، فامتلت آثارهم الأدبية بذكر أناس كثيرين ووصف أحوالهم وأفكارهم ، فيما عدا منشئ تلك الآثار الأدبية أنفسهم وأحوالهم وأفكارهم ، فلا غرو جاءت آثارهم متشابهة ، لا توضع شخصياتهم ولا تنهض بعض ترجمتهم ؛ ومن العجيب أن أكثر الشعراء

مختلفو الشخصيات مستقلوها ، وانحو نفسيات ، متميزة شخصياتهم ونفسياتهم إحداهما عن الأخرى ، تقاربوا في العصور أو تباعدوا ، اتفقوا في المذهب الأدبي أو اختلفوا ، وذلك أول دليل على حيوية الأدب ، وأصدق شاهد باستمداده من يتابع الحياة الجارية ، لا من بطون الكتب الجافة ، فالحياة لا تفتى صورها تمهداً ، وهي تبدو لكل أديب صادق النظر والشعور في صورة جديدة

وإنما تشابهت شخصيات الأدباء وتمائلت آثار الشعراء في عصور تدهور الشعر في أواسط القرن الثامن عشر ، حين بعد الشعراء عن الطيبة وانغمروا في المدينة ، وهجروا الحياة وغزقوا في صفحات الكتب ، وأعرضوا عن وحى شعورهم وقلدوا من سبقهم ، فعدوا يوب وديدين التل الأعلى الذي يحتذى ، والمطلب الأسمى الذي لا يطلب سواه ، واحتذوها في النرض والأسلوب والمروض ، وتعاوروا أشعارها معارضة واقتباساً واختلاصاً ، فخرجت آثارهم جميعاً متشابهة متشاكلة بعيدة عن الفن لا تصور شخصيات قائلها ؛ وتخلوا جميعاً من دون ذينك الشعارين اللذين احتذوها . فلا يهتم بآثارهم اليوم إلا مؤرخ الأدب المدقق المستقصى

وفي تاريخ الأدب العربي شخصيات مستقلة واضحة متميزة ، مخالفة كل منها للأخرى قولاً وخلقاً وأسلوباً ، كالمرى الحكيم المشفق على أمة الطير والحيوان ، المعنى بتنازع البقاء وبنى الأحياء ، والمثنبي الطموح « المتعاطي للكبر وعلو الهمة » كما قال بعض معاصريه ؛ وابن الرومي المشغوف بالجمال الطبيعي والانسانى ، التهموم بنعيم الحياة ولذاتها ، الدقيق النظرة ، الرائع التصوير ؛ وأبى نواس الساجن المسهر ؛ والملاحظ الموكل بفنون الثقافة ؛ وبديع الزمان المتد بنفسه ، الحريص على السادة المكائر بثروته اللغوية ومهارته الصناعية ، السهل الديباجة ، الرائق الفكاهة . كل هاتيك شخصيات بارزة متميزة

ولكن بجانب أمثال أولئك حقل كبير من مشهورى الأدباء الذين آتتنا آثارهم وانحدرت إلينا بعض أخبارهم ، ولكن شخصياتهم مبهمة مطموسة ، يكتنفها الضباب ولا يستجليها الخيال ، وتشابه كثير حتى ننضيف آثار بعضها الأدبية إلى آثار الأخرى فلا ترى فارقا ، ولأتمس مانعاً يحول دون ذلك من تباين الأساليب أو اختلاف النفسيات أو تضاد النزعات ؛

في كتاباتهم جلاء صادقاً

ولما استفحلت الصناعة اللفظية ، واشتد الحرص على  
المحسنات البديعية ، غرقت معاني الشعر وأغراضه وشخصيات  
الأدباء جميعاً في سيل من الألفاظ المرصوفة والعبارات المتقنصة  
من آثار المتقدمين ، وأصبحت دواوين الشعراء جميعاً ديواناً واحداً  
مملوءاً بالنكات اللفظية ، لا فرق بين أوله وآخره . وما أشبه  
ما قاله البهاء زهير بما قاله ابن نباتة بما قاله صفي الدين من نسب  
متناه في ادعاء الرقة والظرف ، ووصف لمجالى الطبيعة تُخلط  
فيه محاسن الطبيعة وصورها بهارج الألفاظ وزخارفها مزجاً  
عجيباً ، وتُطلب البراعة بأقسام مصطلحات العلوم كالنحو  
والمنطق والنجوم

ولا ريب أن أمتع الأدب للنفس ، وأهلقه باللب ، ما أبان  
عن شخصية قوية ، ونفسية مستقلة ؛ ومن ثم نرى أن ذوى  
الشخصيات الأصلية والنظرات الصادقة في حقائق الحياة ،  
كالنبي وأبي العلاء وابن الرومي والجاحظ ، هم الذين حظوا ،  
دون غيرهم من أدباء العربية الأقدمين ، بالدرس الطويل والترجمة  
الفصلى من كتاب عصرنا الحالي ، لأن آثارهم تشوق الدارس  
وتحفزه إلى الكتابة والتعليق والتقد ، وتحوى صوراً من أنفسهم  
يطيب للمطلع التأمل فيها والنظر إلى الحياة في ضوء أفكارها .  
ولو حاول ناقد أن يترجم لروان بن أبي حفصة ، أو مسلم بن  
الوليد ، أو سيار ، أو البحتري ، أو الصاحب ، أو الحريري ،  
ترجمة مفصلة تشرح نفسية المترجم وتبيط عن زغاته وميوله وعوامل  
ذلك ، مستمداً شرحه وتحليله من آثار الكاتب أو الشاعر  
الأدبية التي اشتهر بها ، لكاف نفسه شططاً

فالناظر في الأدبين العربي والإنجليزي ، لا يسهه إلا أن  
يلاحظ أنه يجد في تاريخ الأخير شخصيات قوية مستقلة ظاهرة  
التباين والاختلاف ، مصورة في أعمالها الأدبية حتى لتكاد تنفي  
بها عن ترجمة المترجمين ، ويحوى كتاباتها صورها النفسية الداخلية  
فلا تكاد تترك للمؤرخ أكثر من سرد التواريخ وبعض الوقائع  
وهي لذلك ممتعة جذابة يحس القارى أن بينه وبينها على اختلاف  
اللغة والزمن والوطن تجاوباً وصلة شاملة هي صلة الانسانية ،  
ويطربه أن يراها تعالج نفس المشاكل وتخامر نفس الخواطر  
والخواج التي تساوره ، وأمثال تلك الشخصيات الواضحة أقل  
عدداً في تاريخ الأدب العربي

فقرى أهر العصر

إفصاحاً عن أفكارهم الخاصة وحاجاتهم وشعورهم ، كانوا المجان  
والخلاء الذين لم يكن لهم شعور ولا تفكير في سوى اللذة والبس  
كبشار وحاد

فالناظر في ديوانى الطائي والبحتري ، وفي رسائل ابن العميد  
والصاحب ، لا يمتثر إلا نادراً على ققرة أو أبيات مصدرية عن  
شعور شخصى للأديب هو ببيانه محتفل ، أو فكر جليل هو في  
إذاعته جاد ، ولا يرى في الشعر إلا مديحاً وهجاءً وشكوى للزمان  
وافتنخاراً بملو الشأن ، أو ما كان يجب للشاعر من علو الشأن ،  
وضرباً للأمثال واصطناعاً للحكمة ؛ ولا يرى في النثر إلا تنميقاً  
وتدبيجاً واقتباساً وتكاثراً بسمه الاطلاع ، فلا غرو يتشابه  
أولئك الشعراء إلا تفاوتاً قليلاً في الصياغة ، وأولئك الكتاب  
إلا اختلافاً بسيطاً في الأسلوب ؛ فإذا أنت زعت جانباً كبيراً  
من نظم أولئك الشعراء ، أو نثر أولئك الكتاب ، لم تشوه  
آثارهم بانتزاع ما لا غنى عنه لبيان نفسياتهم ؛ وإذا أضفت بعض  
آثارهم إلى بعض لم يعطك عائق من تميز شخصية عن  
شخصية أو اختلاف منحنى عن منحنى

وهناك عامل خطير لا يقل عن هذا أهمية في تشابه شخصيات  
الأدباء وتماثل آثارهم : ألا وهو زعة المحافظة والتقليد التي  
صاحبت الأدب العربي منذ قامت الدولة العربية وانتشرت اللغة  
في الأقطار ، فقد أخذ الأقدمون مُثلاً علياً في البلاغة  
والشاعرية ، وألح التأخرون على آثارهم وأغراضهم في القول  
ومعانيهم مما كاة وتوليداً وتخريباً ، وجالوا جولان المتقدمين في  
مبادئ المدح والهجاء ، والفخر ، وشكوى الدهر ، وضرب المثل  
واستخراج الحكمة ، واحتذوهم في النسب بليلى وهند والوقوف  
بالأطلال واستحاثات المطى وذرع الغلوات ، فكان للأدباء في توالى  
المصور تراث أدبي واحد يتكرر ولا يكاد يتغير ، ويتشكل  
ولا يكاد يتحول ، ويأخذ منه كل أديب ويكاد يفتى فيه ، وينهل  
منه وتكاد شخصيته تفرق في عبابه

فتقليد المتقدمين دون الطبيعة ، وأخاذهم مثلاً علياً يصدر  
عنها القول ، بدل أن يصدر عن الشعور الفردى المستقل ، من  
أكبر أسباب ركود الأدب وتشابه آثار الأدباء وتقارب  
شخصياتهم ؛ ومن ثم جاءت آثار كثير من الأدباء التأخرين  
مُتشاكلاً مُشابهة جميعها لآثار المتقدمين ، على تباعد الزمان  
واختلاف المواطن ؛ وظلت شخصياتهم غامضة لأنهم لم يجملوها